الأستاذ الدكتور عبدالمنعم بشنّاتي
رئيس قسم اللغة العربيّة وآدابها والدراسات الإسلاميّة
جامعة الجنان

أسبقية العرب
في علم الأصوات على الغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

علـم الأصوات أواللسانيّـات أوأيّ تسمية أخرى تأدّي نفس معنى هذا العلم لا يخرج عن كونه مسمّـى التجويد عند القـرّاء واللغويين القدامـى والمحدثين، فهو علم شريف خـدم نطق ألفاظ القـرآن الكريـم بطريقة سليمة، وقـد انبرى علماء اللغـة العربيّة والقراءات منـذ القرن الهجري الأوّل لبيان سلامة نطق ألفاظ القرآن الكريم ومفردات اللغة العربيّة عامة، فتحدّثوا عن فصاحة الكلمـة، وتآلف الحروف وتنافرها، وانسجام أصواتهـا وتناسبها، وجهدوا في اظهارصحّة أصوات الليـن القصيرة والطويلة المضمومـة والمفتوحة والمكسورة،ولم ينسوا حـركات الإمالة الشديدة والخفيفـة، ونطق الأصوات بين بين، وإبدال الأحرف وقلبها، وأحكام الإدغام والإقلاب والحرفين المتماثلين، والإشمام والروم والإختلاس، والتفخيم والترقيق، وزيادة الأصوات أوحذفها، مما دفع باللغوييـن أن يبتكـروا على أساس هذه الظواهـر اللغويّة وغيرها عدّة علـوم، مثل: علم الصرف، وعلـم اللهجات، والمعاجم التي أساسهـا التقليبات الصوتيّة، وعلم الدلالة، والعروض... وغيرها، وكلّها تقوم على ظاهرة الأصوات المنطوقة عند العرب الفصحاء.

وصّف العرب الأصوات الإنسانيّة، فتحدّثوا عن الأصوات الإنفجاريّة والإحتكاكيّة والمتوسطة

والإستطالـة، وفرّقـوا بين الجهـر والهمس، والشـدّة والرخاوة، وبينـوا التفشّـي والصفير والغنّة والقلقلـة، والأصوات المستعلية، والمستفلة، وأصوات الإطبـاق والمنفتحة... وغير ذلك. فتوصّلوا إلـى الكشف عن مخارج الأصوات اللغويّة، فألّفت الموسوعات والمعاجم والكتب والأبحاث، لتبيين الظواهـر اللغويّة العربيّة وتطور نطقها، وما كانت عليه وما آلت إليه، فرصدوا المفردات وبيّنوا ما فيها من ظواهر صوتيّة أوصرفيّة أودلاليّة... وغيرذلك.

فـكان لعلمـاء العربيّـة دوراً رائداً في تحديـد مخارج الأصـوات اللغويّة: الجوفيّـة والحلقيّة واللسانيّـة والأسنانيّة واللثويّة والشفويّة والأنفيّة، ثمّ تطرّقوا إلـى تشريح جهاز النفصيل الدقيق، فحـدّدوا مسار الهواء المنطلق من الرأتين باتجاه القصبـه الهوئيّة فالوترين الصوتيين، ثم الفم فالشفتيـن مـاراً بالحنجرة ومؤخّـرة اللسان فوسطه ثـمّ طرفه فالأسنان فالشفتيـن، وفرّقوا بين أصـوات اللغة العربيّة بدقّـة متناهية... في مرحلة متقدّمة من الزمن كان العالم مهملاً هذا النوع من العلوم.

هـذه النبذة الصغيـرة عن علم الأصـوات تبيّن قضايـا ومسائل عديدة لهـذا العلم العريق عنـد المسلمين والعرب، واهتمامهـم في نطق الصوت العربي بفصاحة وخفّـة وشاعريّة وبسليقة العربـيّ الفصيح، كما رويت اللغة العربيّة على لسان فصحائها ونقلت إلينا بأقلام علمائنا الثقات وشهادتهـم على صحّـة أصوات لغتنا لتبقى على مـرّ الأيّام والسنوات والقـرون موصّفة نرجع إلى شهادتهم ونستأنس بآرائهم.

وقـد قسّمت هـذه العجالة ـ التي سوف تلقى فـي المؤتمر الدولي للغـة العربيّة السابع، تحت عنوان: دور اللغة العربيّة في عمليّة البناء الحضاري. المنعقد في قسم اللغة العربيّة وآدابها، كليّة اللغات والفنون، جامعة جاكرتا الحكوميّة، جاكرتا، أندونيسيا. بتاريخ ١٤- ١٧يوليو ٢٠١١م. - إلى تمهيد وثلاثة مباحث:

المبحث الأوّل: تاريخ التفكير الصوتي.

المبحث الثاني: أبحاث علماء اللغة العربيّة في علم الأصوات.

المبحث الثالث: علم الأصوات بين الأصالة والحداثة.

المبحث الأوّل

تاريخ التفكير الصوتي

يعـود تاريـخ التفكير اللغوي والأدبيّ العربي إلى ما قبل الإسـلام، وقد تميّز العصر الجاهليّ بوجـود الشعراء الفصحاء، وكانت اللغة العربيّة قد وصلت إلى مرحلة من النضج والعذوبة والرقّة والطلاقـة، حيث كان الشعراء ينظمون أشعارهم باللغة العربيّة الفصيحة، ويلقون بها خطبهم في المحافـل العامة والمجامع الحاشـدة، فصقلت وتهذّبت، وأصبحت جزلة رائعـة الأسلوب، إلى أن نزل بها القرآن الكريم فأعلى من شأنها وحفظها.

وكان للعرب في الجاهليّة أسواق تقام فيها حلقات الشعر والمفاخرات والمنافرات، أسهمت فـي تهذيب اللغة، واستقامة النطـق، وتألّق الفصاحة، فكان سوق عكاظ وسيلة إلى نشر اللغة وإلى تقـارب اللهجات وسبيلاً إلى تجويد الشعر، هناك تُنْتَقَد ثمار القرائح وحصائد الألسنة، حتى كان النابغة الذبياني -الذي تضرب له في عكاظ قبّة من أدم- يجتمع الشعراء عنده فيتحاكمون إليه[1].

وهـذا التنافـس الأدبيّ والسبـاق البيانيّ والاحتفـال بتجويد القصائـد والاقتباس من اللغة المهذّبـة واللهجة المنقّحة،كان له أبلغ الأثر في تهذيب اللغة وصقل مواهب الأدباء، فأدرك بذلك فصحاء العرب دقائق اللغة، وميّزوا بين فصيحها وسقيمها، فتركوا الحَوشِيَّ والمهجون، وتوجهوا إلى لغتهـم الرائعة يحافظون عليها، فأدركوا النغم والموسيقى والإعلال والإقواء وأمراض اللسان اللغويّـة، وباتـوا يصحّحون ويحكمون على الشعر من خلال نطق أصواتـه وأدائه السليم أو الرديء لشعره.

وكان الشاعـر الجاهليّ -بقليل من النقد- يقـوّم لسانه ويدرك خطأه، فيرتقي نظمه وأداؤه، وكان النابغة الذبيانيّ أشعر شعراء العرب[2] قد وقف أمام النعمان بن المنذر -وكان من ندمائه- فألقى قصيدته التي أوّلها:

أَمِن آلِ ميّةَ رائحٌ أومُغتَدي   عَجلانَ ذا زادٍ وغيرَ مُزَوَّدِ

زَعَمَ البَوارِحُ أنَّ رِحلَتَنا غداً   وبذاك تنعابُ الغرابِ الأسوَدِ

ثـمّ ورد يثـرب فهابـوه أن يقولوا له حنثـت وأكفـأت[3]. إذ كان قد أقـوى: وكان النابغة قال: (وبذاك َخبّرنا الغرابُ الأسودُ) فدعوا قيّنة وأمروها أن تغنّي شعره ذاك ففعلت، فلمّا سمع الغناء

١- انظر كتاب الأغاني ج ١/ ص٦. والأدب العربي بين الجاهليّة والإسلام، ص ١٢٩.

٢- الأغاني ج ١١/ ص ٤.

٣- الإكفاء في الشعر عند العرب: الفساد في القافية باختلاف الحركات أوالحروف القريبة المخارج.

و(غيـر مـزوّدِ) و (الغرابُ الأسـودُ) بان له ذلك في اللحن وفطن لموضـع الخطإ فلم يعد، وكان يقول: وردت يثرب وفي شعري بعض العاهة، فصدرت عنها وأنا أشعر الناس[١].

وقـد عرّف القدمـاء الشعر بأنّه: «الكلام الموزون المقفّى» فهم يـرون الإنسجام الموسيقي (أي: الصوتـي) في توالي مقاطـع الكلام وخضوعها إلى ترتيب خاصـ...[٢] فتطرب له الأسماع لتوافـق المقاطق في نسجه، فتوافر ألفاظه المتجانسة وجرس موسيقاه وترتيب مقاطعه يؤدي إلى طـرب السامع وسـروره. والموسيقى تعتمد على الناحيـة الصوتيّة التي تقسّـم الجمل إلى مقاطع متناسقـة تكـوّن وحدات معيّنة علـى ترتيب معيّن... ولهـذا ابتكر الخليل بن أحمـد علم العروض الـذي هو علم موسيقى الشعر، فالتفعيلة في علم العروض وحدة صوتيّة لا تدخل في حسابها نهاية الكلمات، فمرّة تنتهي التفعيلة في آخر الكلمة، ومرّة في وسطها، ومرّة تبدأ من نهاية كلمة وتنتهي ببدء الكلمة التي تليها، ومثال ذلك قول الشاعر:

هم ورّثوك المجد أبيض زاهرا فاحمله مثل الشمس للأبناء

هم وررثو كلمجد أب يضزاهرن فاحملهمث لششمس أبنائي

مستفعلن مستفعلن متفاعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلْ[٣]

والعصـر الجاهلي خلّـف تراثاً ضخماً من الشعـر الأدبي، وإذا أردنـا أن نستبين تاريخ هذا الأدب فإننـا لا نصـل إلى نتيجة مقنعة، إذ أننا لا نعرف تاريـخ اللغة العربيّة على الوجه الصحيح، وليسـ من المعقول أنّ هذه اللغة بدأت بهذه النصوصـ الشعريّة الجاهليّة، فهذه النصوص نماذج عالية من العربيّة[٤].

وعلـم العروض من صلب علـم الصوتيّات، فقد قـال الدواخلي والقصّاصـ - مترجما كتاب (اللغـة): وتتصـل بالأصوات دراسـة وزن الشعر، التي تناولها من جديد فيمـا يختصّ بالفرنسيّة الأستـاذ بـول فربيـه (الشعر الفرنسـي، مجلّـدان، باريسـ ١٩٣١ - ١٩٣١). وتناولهـا من جهة نظرعامـة الأستـاذ: أ. دي جروب في (العروض العام والـوزن): La metrique (generale et le) rythme (نشرة الجمعيّة اللغويّة مجلّد ٣٠ ص ٢٠٢) وفي كتاب (الوزن) der rythmus نيو فيلو جوس عام ١٩٣٤ [٥].

١- انظر الأغاني ١١/ ٨. ١١.

٢- انظر موسيقى الشعر، ص ١٠.

٣- انظر علم العروض والقافية، ص ١٠.

٤- انظر التطوّر اللغوي، ص ٦٥.

٥- انظر اللغة، ص ٤٦١.

والعـرب بحسّهم المرهف، وفصاحتهم النقيّة أدركـوا ثقل الأصوات وخفّتها وما يجري على اللسـان سلساً أونابياً، فكانوا يميلون إلى تخفيف الأصوات وطلاقتها، وإذا احتاجوا إلى قلب حرف أوإبداله بما يناسبه فعلوا، قال المبرّد: «والشاعر إذا احتاج إلى قلب الهمزة قلبها إن كانت الهمزة مكسـورةً جعلها يـاءً، أوساكنة جعلها على حركة ما قبلها، وإن كانـت مفتوحةً وقبلها فتحةٌ جعلها ألفـاً، وإن كانـت مفتوحة وقبلها كسرةٌ جعلها ياءً، وإن كانت قبلهـا ضمّةٌ جعلها واواً»[١] فقد أدرك العربيّ الفصيح قوانيـن اللغة العربيّة الصوتيّة والنحويّة والصرفيّة وغيرها في العصر الجاهلي، ولـم تكن مكتوبة وإنمـا بالسليقة العربيّة السليمة، ومـا أن أهلّ عصر الإسـلام إلا وكانت العربيّة أفضل اللغات تناسقاً وانسجاماً وضبطاً. فنزل القرآن بها ليشرّفها ويزيدها رونقا وجملاً.

وكان رسـول الله ﷺ حسـن الصوت، فعـن البراء بن عازب ـ رضي الله عنهـا ـ قال: «سمعت النبي ﷺ قرأ في العشاء بالتين والزيتون فما سمعت أحجداً أحسنَ صوتاً منه» متّفق عليه[٢]. وكان رسـول الله ﷺ يأمر المسلمين بالتغنّي وتحسين أصواتهم عندما يقرأون القرآن الكريم، وعن أبي لبابـة بشير بن عبدالمنذر –رضي الله عنـه– أنّ النبي ﷺ قال: «من لم يتغنّى بالقرآن فليس منا» رواه أبو داود بإسناد جيد[٣] وقد وضع علماء الحديث باباً في استحباب تحسين الصوت بالقرآن، وكان رسـول الله ﷺ يحبّ أن يستمع إلى الأصوات الحسنة، فعن أبي بُردة عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ لأبي موسى: «لو رَأَيْتني وأنا أستمع لقراءَتِك البارحة! لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود» رواه مسلم في صحيحه[٤].

وإذا كنّـا نقـول: بأن الدافع إلى الدراسـة اللغويّة عند العرب يكمن فـي المحاولة المخلصة الجـادة التي قام بها علماء العـرب للمحافظة على القرآن الكريم وعلى لغته، فإنّ هذا القول يكون أصـدق وأوضـح عندما نطلقه بالنسبـة للدراسات الصوتيّـة، ذلك أنّ اوّل فكر صوتـيّ وصل إلينا عنهـم يتجلّى في محاولة أبي الأسود الدؤلي[٥] وضع رموزاً لقسم هام من الأصوات أهملت الكتابة السميّـة الرمز له، وقد عرف هذا القسم بالحركات، وقد أدّى إهمال الرمز له إلى وقوع الخطإ في تـلاوة القرآن الكريم، وأراد أبو الأسود أن يمنع هذا الخطأ، فجاء بكاتب ووضع المصحف أمامه، وقـال لـه: إذا رأيتني أفتح فمي بالحرف فانقط واحدة فوقـه، وإذا رأيتني أضمّه به فانقط واحدة

١– الكامل، ٢ / ٤٤٢.

٢– شرح رياض الصالحين، ص ٣٦٦.

٣– نفس المرجع.

٤– صحيح مسلم، ص ٣٧٩.

٥– هو: ظالم بن عمرو بن سفيان، إشتهر بكنيته، وكان من شيعة علي ـ ر ـ وتُوُفِّيَ سنة تسع وستّين، وله خمس وثمانون سنة. انظر: تاريخ العلماء النحويّن، ص ١٦٤ ومابعدها...

بين يديه، وإن رأيتني أكسره فاجعل النقطة تحته، وإن أتبعت شيئاً من هذه الحركات غنّة، فاجعل النقطة نقطتين[١].

ويبيّن هذا النصّ أنّ رسم الأصوات الصامتة (الحروف) كان معلوما، أما الأصوات الصائتة (الحـركات القصيرة والطويلة) فلم يكن متصوّراً بصـورة كافية، ولهذا كان مهملاً في الرمز له فـي الكتابة، فالأصوات الصائتة (الحـركات) ليست صفات للأصوات الصامتة (الحروف) وإنّما هي أصوات أخرى لا تقلّ أهمّيّتها عن الأصوات الصامتة.

وعمـل أبـي الأسـود كان جليـلاً، فقد فتح بـه بابـاً لإدراك الفرق بيـن الأصـوات الصامتة والأصـوات الصائتـة، ولفت نظـر الباحثين إلـى التفرقة بينهمـا، فالفتحة تفتح معهـا الشفتان، والكسرة تنفرجان معها، والضمّة تضمّان من أجلها، ومن هذه التحرّكات الشفويّة استخدمت تلك الأصـوات الصائتة اسمها العام (الحركات) وتسمياتهـا الجزئيّة فتحة وكسرة وضمّة، وهذا عمل جليل ومبتكر[٢].

المبحث الثاني: أبحاث علماء اللغة العربية في علم الأصوات

السلـوك اللغوي لفصحاء العربية قبـل الاسلام يوحي بعمق فهمهم لأصـوات اللغة العربية، بدليـل نهجهم في النطق وإخـراج الأصوات اللغوية ذات المعاني الدقيقـة والخصائص المميّزة، فقـد إنتشر الوعي الصوتي ونطق المقاطع الصوتية وتحديـد الكمّ الزمني لأصوات اللين، فميزوا بين اللهجات بطريقة معرفتهم بالمنطوق اللغوي، فكان الأعرابي يتبيّن عند سماع جملة أن دلالتها إستفهامية، نحو قوله: مُحَمَّدٌ حَضَرَ؟ وبدلالة الإخبار- في نفس المنطوق-: محمد خضر. قاصداً الاخبـار بمقدم محمد. إلا أن التنغيم والأداء والنبر يختلف ما بين الحالتين: الإستفهام والإخبار، أو الإنكار.

والأعرابـي في العصر الجاهلي الذي ميّـز المعاني المتباينة عن طريق الأداء، لم يغفل أداء الكلمـة المنطوقـة أيضاً حسب دلالـة معناها، فقد تـؤدي الكلمة الواحدة أكثر مـن معنى وأحرف الكلمـة لـم يلحقها أي تغيير، وإنمـا الذي تغيّر هو أداء الكلمة الصوتي، سـواء بالتغيير في عنصر واحد أو أكثر، وعناصر الأداء: النبر- الطول الصوتي- التزمين- التنغيم- اللون. فعند نطق كلمة مـا فإنهـا تدلّ على معنى معيـن، وإذا طلبنا بنفس الأحرف مدلولا آخر فعلينـا تغيير أحد عناصر الأداء أو أكثـر، فيتغيـر بذلك مدلـول الكلمة، فإذا قلنـا: «أَسَدٌ» الحيوان المعـروف، و«أَسَدُّ» أفعل تفضيـل من السداد، يدل على هذا الاختلاف في المعنـى بسبب اختلاف موضع النبر فيهما، فهو

١- أنظر: محاضرات في الصوتيّات، ص ٢٩. وتاريخ العلماء النحويين، ص ١٦٧، والخبر موجود في عدّة مراجع.

٢- انظر: محاضرات في الأصوات، ص ٣٠.

فـي الأولى على المقطع «أ» وفي الثانية علـى المقطع الثاني «سَدَّ». وطول الصوت اللغوي يؤدي الى تغيير نغمة الكلمة ومدلولها، فصوت الفتح الطويل أو القصير، وكذلك الضم والكسر، وبتغيير طول الصـوت اللغوي يتغير مدلول الكلمة الى معنى آخـر، فكلمة ذَهَبَ فعلٌ ماضٍ، مفتوح الأول، وكذلك ذاهب الحرف الأول مفتوح طويل، ولكن المعنى اسم فاعل.

هـذه الملاحظـات البسيطة في الدرسـ اللغوي الصوتي، هـي جزئيّات من فهـم الأعرابي لأصـوات اللغـة العربية وقواعدها النحوية التي لم يكتب لها في ذلـك العصر بعد أن تدون، فاللغة العربيـة الأدبية التي عرفت قبل الاسـلام كانت أعلى منزلة من لغة التخاطـب العاديّة المتداولة، وكانـت في غاية من الرقي والاتسـاع الفكري والحضاري، وبراعة العرب فـي لغتهم سهّلت عليهم إدراك معانـي القرآن الكريم. قال الرافعي: نزل القـرآن على رسول الله ﷺ بأفصح ما تسمو إليه لغة العرب في خصائصها العجيبة وما تقوّم به، مما هو في جزالتها ودقة أوضاعها وإحكام نظمها وإجتماعهـا مـن ذلك على تأليف صوتيّ يكاد يكون موسيقيا محضـا، في التركيب، والتناسب بين أجراس الحروف الملاءمة بين طبيعة المعنى وطبيعة الصوت الذي يؤدّيه[١].

والأعرابي في سليقته السليمة كان متمكّنا من نطق الأصوات اللغوية بما يتناسب مع الإعراب والمعنـى المـراد الدلالة عليـه، وإلا لم يتمكّن من فهـم القرآن الكريم، وأشكلـت عليه العديد من الآيـات، إذ الخطـأ الصوتي في الإعـراب عند تلاوة القرآن يـؤدي إلى غير المدلـول الذي يريده القـرآن الكريـم، فقـد روي أن أعرابياً فـي خلافة أميـر المؤمنين عمر بن الخطـاب- رضي الله عنـه- قال: من يقرئُني شيئاً مما أنـزل الله تعالى على محمد ﷺ فأقرأه رجل سورة براءة، فقال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِۦ﴾[٢] بالجر، فقـال الأعرابي: «أوقد برئ الله من رسولِهِ؟ إن يكن الله تعالى برئ من رسوله فأنا أبرأ منه، فبلغ عمر- عليه السلام- مقالة الأعرابي، فدعاه، فقـال: يا أعرابي أتبرأ من رسول الله ﷺ؟ فقـال: يا أمير المؤمنين إني قدمت المدينة ولا علم لي بالقـرآن، فسألت من يقرئنـي؟ فأقرأني هذا سورة بـراءة، فقال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِۦ﴾ فقلـت: أو قـد برئ الله تعالى مـن رسوله؟ إن يكن الله تعالى برئ مـن رسوله فأنا أبرأ منه، فقال عمر-رضي الله عنه-: ليس هكذا يا أعرابي، فقال: كيف هي يا أمير المؤمنين؟ فقال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ فقـال الاعرابي: وأنا والله أبـرأ ممن برئ الله ورسوله منهم، فأمر عمر - رضي الله عنه - أن لا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة، وأمر أبا الأسود الدؤلي أن يضع النحو[٣]».

١- إعجاز القرآن- للرافعي. ص ٤٦.

٢- سورة التوبة، الآية (٣)

٣- نشأت النحو لمحمد الطنطاوي .ص ١٨، ولهذه الحادثة عدة روايات وانظر تاريخ العلماء النحويين، ص ١٦٦ .

لذلك فقد تميزت اللغة العربية عن بقية اللغات بالإعراب وقل: بحركات الإعراب أو أصوات الإعراب، فإذا أعرب الناطق بالصوت سليما عدّ فصيحا وإلا يعتبر أنه قد لحن أي: أخطأ والعرب عُرفوا أنهم فصحاء، والقرآن نزل بلغة عربية فصيحة لا تعتريها شائبة، قال تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[1]. فكان الأعرابي يدرك بدقّة متناهية مدلول الصوت اللغوي ويميز به دلالته على المعاني بواسطة سماع الفتح أو الكسر أو الضم، وكذلك بطريقة نوع إلقاء الخطاب.

وكانت ملاحظات ظالم بن عمرو بن سفيان المعروف بأبي الأسود الدؤلي[2] خطوة أولى نحو وضع علم النحو، إذ لاحظ أن ابنته وغيرها لا يميّزون بين معنى الصوت اللغوي المفتوح والمضموم، إذ قالت ابنته له يوماً: يا أبتِ، ما أشدُّ الحَرِّ -تريد التعّجب من شدة الحرّ، وظن أنها تريد الاستفهام- وقد كان يوماً حاراً. فقال: ما نحن فيه. فقالت: إنما أردتُ أنَّ الحرَّ شديدٌ فقال: قولي: ما أشدَّ الحرَّ[3]. وروي أيضاً أن أبنته قالت له: ما أحسنُ السماءِ؟ فقال أي بُنَيَّهُ، المجرّةُ، ويقال: نجومُها. فقال: لم أردْ أيُّ شيءٍ منها أحسنُ، إنما تعجبتُ. فقال: قولي إذا: ما أحسنَ السماءَ[4]. فيقال: إن أول ما رسم أبو الأسود من علم النحو بابَيّ التعجب والاستفهام.

وأبو الأسود الدؤلي كان من شيعة علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- أي عاصر الخلفاء الراشدين، إلا أن علوم العربية مما لا يختلف فيه اثنان أنها نهضت في عدة نواح في القرن الثاني الهجري وكان عمادها الخليل بن أحمد، فمن عهده شتات العلم، والتأم عقده، واتخذ تعليمه دوره الفني الصحيح، فقد وضع الخليل القواعد النحوية مرتبة ورواها عنه سيبويه، وابتكر علم العروض، والأصوات اللغوية، والمعاجم... وغيرها.

وكان العلماء يجمعون اللغة الفصحى واللهجات العربية ويفرّقون فيما بينهما بنطق الأعراب للهجتهم، قال الأصمعي: ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم، وتلتلة بهراء، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضجّع قيس، وعجرفية ضبة. أما عنعنة تميم، فإن تميما تقول في موضع (أنّ): (عن) -فتبدل الهمزة عينا- وتقول: ظننت عن عبد الله قائم. وأما تلتلة بهراء، فإنها تقول: تِعلَمون وتِفعَلون وتِصْنعون بكسر أوائل الحروف، ومعنى قوله: «كشكشة ربيعة» فانما يريد قولها مع كاف ضمير المؤنث: إنّكِش ورأيتُكِش، وأعطيتكش. تفعل هذا في الوقف، فإذا وصلت أسقطت

١- سورة الزمر، الآية (١٨)

٢- أنظر ترجمته في تاريخ العلماء النحويين ص ١٦٤.

٣- نفس المرجع ص ١٦٧ .

٤- نفس المرجع ص ١٦٨. وانظر نشأة النحو، ص١٨ . وانظر ترجمته وأخباره في طبقات النحويين واللغويين ص ٢١ .

الشيـن. وأما «كسكسة هوازن» فقولهـم أيضاً: أعطيتُكِس، ومِنْكِسْ وعنْكِسْ، وهذا في الوقف دون الفصل،... الخ[1] فقد حدد علماء اللغة عند جمعهم للغة الفصيحة ماذا يريدون من وراء جمعهم للغـة الفصيحة واللهجات، فدرسوا اللهجات وذكروا في توصيفها أنها صحيحة أو رديئة، وبيّنوا ما فيها من إبدال أو قلب أو إعلال.

واللهجات: قيود صوتية خاصة تلحظ عند أداءِ الألفاظ في بيئة معينة، وهذا نتبيّنه في جميع اللهجـات العربية، فمثلا: نجـد أن جمهرة العرب تحرّك الهاء من «هـم» بالضمّ إن لم تسبق بياء أو كسـر كقوله تعالـى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[2] فـإن سبقـت باليـاء أو الكسر، كسـرت الهاء، كقولـه تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ...﴾[3] ولكـن ربيعة تضّم الهاء من «هـم» مطلقاً دون النظر لما يسبقها من حركة أو حـرف، وتلك الوجهة المنسوبة إلى ربيعة تعرف بالوهم[4].

وقـد قام علمـاء اللغة العربية مـن أول القرن الثانـي الهجري يجمعون اللغـة واللهجات وما يصادفونـه من كلام وعبارات ويذكرون طريقة نطـق كل قبيلة لمفردات لهجتها ويوقعون ذلك في الرسائـل اللغويـة الصغيرة، التي استسقى اللغويون العرب مادتها مـن أفواه البدو، فكان اللغويون يسيحـون في الجزيرة العربيـة، يسألون البدو، وبكتبون عنهم، وقد سـأل الكسائي (المتوفى سنة ١٨٩هـ.) الخليل ابن أحمد قائلاً: من أين أخذت علمك هـذا؟ فقال: من بداوي الحجاز وتهامة، فخرج الكسائي إلى البادية، ورجع وقد أنفذ خمس عشرة قنينة حبر، في الكتابة عن العرب، سوى ما حفظ[5].

أراد الخليـل أن يكـون عمله في جمع اللغـة فذا لا مثيل له، مرتبا بدقـة، ومنسقا بطريقة لم يسبـق إليها، فوضع كتابه «العين» ورتـب المادة اللغوية في كتابه على حسب مخارج الأصوات فبدأ بالأصـوات الحلقية، ثم باللسانية، ثـم بالشفوية، ثم بالجوفية[6] ويبدو أن تفوقه في علم الأصوات والنغـم والموسيقى كان هاديا له لسلوك هذا المنهـج، وجعل كل صوت بابا ورتّب الأصوات اللغوية مجموعات صوتية، مبنيا على أساس المخارج فقدم المجموعات الصوتية حسب عمقها في الحلق

١- أنظر: سر صناعة الإعراب ١/٢٣٤.

٢- سورة التوبة، آية (٧٥).

٣- سورة الفاتحة آية (٦-٧).

٤- أنظر اللهجات العربية، ص: (٧-٨)

٥- أنظر فصول في فقه اللغة، ص (٢٠٤) .

٦- ليس المقام هنا ذكر منهج الخليل في كتابة العين .

ثـمّ تدرج حتى الأصوات الشفوية، ثم الأصوات الجوفية (حروف العلة). وهي على النحو التالي: ع ح هـ خ غ ، ق ك ، ج ش ض ، ص س ز، ط د ت ، ظ ذ ث ، ر ل ن ، ف ب م، و ا ي ء.[١]

وقـد حدد الخليل مخـارج الأصوات بدقة لم يعهـد لها مثيلٌ من قبل، فقـال: فالعين والحاء والهـاء والخـاء والغين حلقيـة، لأن مبدأها من الحلـق. والقاف والكاف لهويتـان، لأن مبدأها من اللهـاة. والجيـم والشين والضـاد شجريـة، لأن مبدأها من شجـر الفم أي مفرج الفـم. والصاد والسيـن والـزاء أسلية، لأن مبدأها مـن أسلة اللسان وهـي مستدق طرف اللسـان. والطاء والتاء والدال نِطَعيَّة، لأن مبدأها من نِطَع الغار الأعلى. والظاء والذال والثاء لثوية، لأن مبدأها من اللثة. والـراء واللام والنون ذليقية، لأن مبدأها مـن ذلق اللسان، وهو تحديد طرفي ذلق اللسان. والفاء والبـاء والميم شفوية، لأن مبدأهـا من الشفة. والياء والواو والألف والهمزة هوائية في حيز واحد، لأنها لا يتعلق بها شيء، فنسب كلّ حرف إلى مدرجته وموضعه الذي يبدأمنه[٢].

والخليل بيّن الفروق بدقة متناهية بين الأصوات في المجموعة الواحدة ذات المخرج الواحد، حيـث وصّـف الأصوات المتوالية على الترتيب فيذكر التشابه ما بيـن الصوتين: فأقصى الحروف كلها: مخرج العين ثم الحاء ولولا بحّة في الحاء لأشبهت العين لقرب مخرجها من العين، ثم الهاء ولولا هتة في الهاء -أو ههَّه- لأشبهت الحاء، لقرب مخرج الهاء من الحاء ...[٣] إلخ.

وقـد ذكر اللغويون وعلمـاء القراءات القرآنية أن لكل حرف مـن الحروف مخرج عند نطقه لـذا يجب أن يستوفي إلى جانب مخرجه الصحيح صفـة نطقه سليما، فحدَّدوا لكل صوت صفاته، مـن الجهر وضده الهمس، والرخاوة وضدها الشدة، والإنفتاح وضـده الإطباق، والاستفال وضده الاستعـلاء، وبينـوا أن الحـروف المجهـورة تسعة عشر حرفا، وهـي عدا حروف الهمـس العشرة المجموعـة في : حثت كسف شخصه، وحروف الشدة ثمانيـة وهي المجموعة في : أجدك قطبت، وما عداها فهي حروف رخوة، إلا أن الحروف الخمسة في: «نل عمرو» حروف متوسطة بين الشدة والرخـاوة، وباقـي الحروف للرخاوة وهي ستـة عشر حرفا، وحروف الاستعـلاء سبعة جمعت في: خص ضغط قظ، وباقي الحرف مستفلة، وحروف الإطباق أربعة : الصاد والضاد والطاء والظاء، وباقي الحروف منفتحة، وكل هذا معلوم ومحله كتب التجويد[٤].

١- انظر كتاب العين، ص ٦٥.

٢- نفس المرجع ص٦٥ . هذا ما يراه الخليل بن أحمد ويختلف علماء التجويد معه في مخارج الأصوات، نحو قولهم: وفي الحلق ثلاثة مخارج: أقصاه ويخرج منه ثلاثة أحرف: الهمزة والهاء والألف، ووسطه ويخرج منه حرفان: العين والحا، وأوله، أي: أدناه مما يلي الفم، ويخرج منه الغين والخاء. الوافي ، ص ٣٨٨ .

٣- كتاب العين ص ٦٤ .

٤- انظر الوافي ، ص ٣٩١.

وقد ذكر علماء التجويد لكل صوت لغوي بعض الخصائص الذي يجب أن يتمتع بها: فالصفير صفة يوصف بها الصاد والسين والزاي. والتفشي صفة توصف بها الشين. والإنحراف صفة توصف بها اللام والراء. والتكرير صفة توصف بها الراء والاستطالة توصف بها الضاد. والهوى صفة توصف بها الألف... والحروف الخمسة المجموعة في «قطب جد» توصف بالقلقلة، والقاف أعرف حروف القلقلة وأشهرها لشدة الصوت فيها أكثر من غيرها[١].

وقد ألف تلميذ الخليل النجيب سيبويه «الكتاب» وأوقع فيه علماء جماً فكان مرجع النحاة والقراء، وعقد بابا في «الادغام» ذكر فيه عدد حروف العربية ومخارجها وصفاتها: مهموسها ومجهورها، وأحوال مجهورها ومهموسها واختلافها، وذكر أنَّ أحرف اللغة العربية تسعة وعشرون حرفا، وتصبح خمسةً وثلاثين حرفاً بحروف هنّ فروع، وأصلها من التسعة والعشرين، وهي كثيرة يؤخذ بها، وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار، وهي: النون الخفيفة، والهمزة التي بَيْنَ بَيْنَ والألف التي تُمال إمالة شديدة، والشين التي كالجيم، والصاد التي تكون كالزاي، وألفُ التفخيم بلغة أهل الحجاز، في قولهم: الصّلاة والزّكاة والحياة. وتكون اثنين وأربعين حرفا بحروف غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة من تُرتضى عربيّتُه ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر، وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، والجيم التي كالشين والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالثاء، والباء التي كالفاء، وهذه الحروف اثنين وأربعين جيدها ورديئُها أصلها التسعة والعشرون الأساسية لا تُتَبَيَّن إلا بالمشافهة. وهذا النص يبيّن أن عدد أحرف اللغة العربية المكتوبة تسعة وعشرون حرفا[٢] بينما المنطوق يفوق ذلك وتصل أصوات اللغة العربية المشهورة إلى اثنين وأربعين صوتاً[٣].

وقد أكد هذا التوجه العلامة ابن دريد[٤] فبعد أن ذكر الأحرف وعددها مثل لها بقوله: فمن تلك الحروف: الحرف الذي بين (الباء والفاء) مثل (پور) -تكتب بثلاث نقط تحتية- إذا اضطروا إليه قالوا (ڤور). ومثل الحرف الذي بين (القاف والكاف) و(الجيم والكاف) وهي لغة سائر أهل اليمن مثل: جمل، إذا اضطروا إليه قالوا (كَمل) بين الجيم والكاف[٥]. ومثل الحرف

١- انظر الوافي، ص ٣٩٢.

٢- إعتبار الأبجدية العربية تسعة وعشرون حرفاً مختلف عليه، بعضهم يعتبرها ثمانية وعشرين حرفاً على إعتبار أن الحرف التاسع والعشرين، ليس حرفاً بل هو صوت الفتحة الممتد، في حين أن الواو والياء يأتيان متحركين.

٣- انظر «الكتاب» ٢/٤٨٨.

٤- هو أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري المعروف بابن دريد، المتوفى سنة ٣٢١هـ. الجمهرة، ص(٤).

٥- هي المعروفة بالجيم القاهرية أو الفارسية أو اليابسة.

الذي بين (الياء والجيم) وبين (الياء والشين) مثل: غلامي، فإذا اضطروا قالوا: غلامج...[١]

وقد ذكر سيبويه الأصوات الشديدة والرخوة وما بين الرخاوة والشدة، والأصوات المنحرفة والمكـررة، وأصوات اللين، والصوت الهاوي، والأصـوات المطبقة والمنفتحة[٢]، ثم شرح الإدغام فـي الحرفيـن اللذين تضع لسانك لهما موضعاً واحداً لا يزول عنه، وبيَّن أمرهما إذا كانا من كلمة واحـدة لا يفترقـان، وشرح إذا كانا منفصليـن أحسن ما يكون الإدغام فـي الحرفين المتحركين الذيـن هما سواء إذا كانا منفصلين، أن تتوالـى خمسة أحرف متحركة بهما فصاعداً، لأن الكلمة الخماسيـة لا تتوالـى حروفها متحركة استثقالا للمتحركات مع هذه العـدّة ولا بد من ساكن، ومما يـدل علـى أن الإدغام لك أحسن أنه لا تتوالى في تأليف الشعر خمسة أحرف متحركة، وذلك نحو: جَعَـلَ لَكَ، وفَعَلَ لبيد، فأنت تقول: جعَلَّك، وفعلَّبيد . فإن كان قبل الحرف المتحرك الذي وقع بعده حـرف مثله: حرف متحرك ليس إلا وكان بعد الـذي -الحرف الثاني- هو مثله حرف ساكن حسن الادغـام، وذلك نحـو قولك: يد دّاود، وكلما توالت الحركات أكثـر كان الادغام أحسن. وإذا التقى الحرفـان المثلان اللذان هما سواء متحركين وقبـل الأول حرف مدّ فإن الإدغام حسنٌ لأن حرف المـدّ بمنزلـة متحرك في الإدغام، وذلك نحـو: إنَّ المال لَّك، وهم يُظَلمونّي وهمـا يُظَلمانّي وأنتِ تظَلمينِّي[٣]. وقد أطال سيبويه في شرح نظريته للإدغام، ثم شرح الادغام في الحروف المتقاربة التي من مخرج واحد، والحروف المتقاربة مخارجها... الخ.

أمـا ابن دريد في مقدمـة الجمهرة فقد عقد عدّة أبواب في مسائـل أصول اللغة العربية[٤]، مثل: باب صفة الحروف وأجناسها، الحروف المذلقة، باب مخارج الحروف واجناسها، باب معرفة الزوائـد ومواقعهـا، باب أمثلة الأبنية، وقال فيه: واعلم أن أحسـن الأبنية عندهم -أي العرب- أن يبنوا بامتزاج الحروف المتباعدة، ألا ترى أنك لا تجد بناء رباعيا ومصمت الحروف لامزاج له من حـروف الزلاقة، إلا بناء يجعل بالسين وهو قليل جداً، مثل: عَسْجَد، وذلك أن السين ليّنَة وجرسها من جوهر الغنة، فلذلك جاءت في هذا البناء.

فأمـا الخماسي مثل: فَرَزْدَق وسَفَرْجَل وشَمَـرْدل فإنك لست تجد واحدة إلا بحرف وحرفين مـن حـروف الزلاقة من مخرج الشفتيـن، أوأسلة اللسان، فإن جاءك بنـاء يخالف ما رسمته لك، مثل دَعْشَق وضَعْثَج وحُضافَج وصَفْعَج، أو مثل: عَقْجَش وشَعْفج، فإنه ليس من كلام العرب، فاردده فـإن قومـا يفتعلون هـذه الاسماء بالحـروف المصمتـة ولا يمزجونها بحروف الزلاقـة، فلا يقبل ذلـك من الشعر المستقيم الأجـزاء، إلا ما وافق ما بنته العرب من العروض الذي أسس على شعر

١- جمهر اللغة، ص (٥).

٢- انظر الكتاب، ص (٤٩٠).

٣- انظر الكتاب ٢/٢٩١ وما بعدها.

٤- انظر جمهرة اللغة ١/٦ وما بعدها .

الجاهلية[1].

وبيّـن ابـن دريـد أكثـر الحـروف استعمـالا عند العـرب، وأقـلّ مـا يستعملـون لثقلها على ألسنتهـم، وأن أخفّ هـذه الحروف كلها ما استعملته العرب في أصـول أبنيتهم من الزوائد، وبيّن إذا توالـت الـلام والراء في بناءيـن فاللام لا تستبين مثل قوله تعالـى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2] فإنهـم لا يبيِّنـون اللام ويبدلونهـا راءً لأنه ليس في كلامهم «لـرّ» ... إلا بعض المفـردات، ومثله: «الرّحمن الرّحيـم» لا تستبين اللام عند الراء، وكذلـك فعلهم فيما أدخل عليه حـرف زائد وأبدل، فتاء الافتعـال عند الطاء والظاء والزاي والصـاد وأخواتها تحول إلى الحرف الأقـوى. وفي البناء الواحد فقد أبدلوا الحـرف الضعيف إلى حرف قوي، فالسين إذا اجتمعت في كلمـة مـع القاف أو الطاء أو الحاء، فأنت مخير بابقائها على حالها، أو إبدالها صادا، مثل: سراط وصـراط، وسقر وصقر، والسين إذا اجتمعت مع الغين في كلمة جعلوا السين صادا والصاد سينا، مثل: سَوَّغته وصَوَّغته، وقالوا: اصبغ الله عليه نعمه، وأسبغها، وقالوا: قصط وقسط[3].

وقـد عقد الأزهري في مقدمة تهذيب اللغة بابا في ألقـاب الحروف ومدارجها[4]. وآخر في أحيـاز الحـروف[5]، بين فيهما العديد من المسائل الصوتية. وقد ذكـر سيبويه في ثنايا «الكتاب» ملاحظات قيّمة فيما يتعلق بالكمّ الزمني للحركات[6].

أما علماء القراءات القرآنية والتجويد فإنهم توسعوا في هذا العلم ليتعلم طلاب العلم قراءة القـرآن مجوّدا ومحافظة علـى القراءة السليمة للقـرآن الكريم، وهذه بعض الأبـواب الواردة في «حـرز الأماني ووجه التهاني»[7] المعروف «بالشاطبية»: باب الإدغام الكبير، باب إدغام الحرفين المتقاربيـن فـي كلمة وكلمتيـن، باب المدّ والقصر، بـاب الهمزتين من كلمة، بـاب الهمزَتين من كلمتيـن، باب الهمز المفرد، باب نقل حركة الهمز إلى الساكن قبلها، باب الوقف على الهمز، باب الإظهـار والإدغـام، باب ذكر حروف قربـت مخارجها، باب أحكام النون الساكنـة والتنوين، باب الفتح والأصالة بين اللفظين، باب إمالة هاء التأنيث وما قبلها في الوقف، باب مذاهب العلماء في الـراءات، باب اللامات، باب الوقـف على أواخر الكلم، باب مخارج الحروف وصفاتها التي يحتاج

١- انظر جمهرة اللغة ١/١١.

٢- سورة المطففين، الآية ١٤.

٣- انظر جمهرة اللغة ١/١٢.

٤- انظر تهذيب اللغة ١/٤٤.

٥- انظر نفس المرجع ١/٥٠.

٦- انظر محاضرات في الصوتيات، ص ٣٠.

٧- تأليف: الإمام الشاطبي، وهو أبو القاسم بن فهيرة بن خلف بن أحمد الشاطبي الأندلسي، ولد سنة ٥٣٨ هجرية بشاطبة وتوفي سنة ٥٩٠ هجرية ودفن في سفح جبل المقطم بالقاهرة، انظر ترجمته في «الوافي، ص ٣».

القـارئ إليها[١]. فقد توجه أصحـاب الأداء القرآني (التجويد) إلى تنظيم الدراسة الصوتية على أسـس وقواعد استقوهـا من دراسات الخليل وتلاميذه، وألّفوا كتبا كثيـرة في علم التجويد، ليقبل الطلاب على التعلم منها، ليؤدوا تلاوة القرآن أداء صحيحاً.

ويعـد ابن جني[٢] صاحب الفضل الاول في جمع التـراث الصوتي للذين سبقوه، وقد عرضه في مؤلفاته وبخاصة في كتابه: «سرّ صناعة الإعراب» عرضا وافيا، شرح فيه غوامضه، وأكمل فيه كثيراً من نواقصه، فكان بحق المصدر الوافي لمن يريد معرفة التفكير الصوتي عند العرب[٣].

والناظـر في كتاب سرّ صناعة الإعراب يـرى أن ابن جنى ابتدأ الكتاب بمدخل عالج فيه الموضوعـات التاليـة: فرق ما بيـن الصوت والحـرف، ذوق أصوات الحروف، الحـروف المتسعة المخـارج ثلاثـة: الألف، واليـاء، والواو، تشبيـه الحلق بـآلات الموسيقى، معنى الحـرف وموضع استعمالـه الحـركات أبعاض حـروف المدّ، علّة تصحيح الـواو والياء في نحو ثـوب وبيت، أسباب قلب الواو والياء ألفين في نحو قال وباع ... إجراء العرب الحرف مُجْرى الحركة، والحركة مجرى الحرف . الحرف ضربان : ساكن ومتحرّك، مرتبة الحركة من الحرف: أقبله، أم معه، أم بعده؟... ما لم ينقط من حروف الهجاء[٤].

وبعـد أن انتهى من المدخل افتتح بـاب أسماء الحروف وأجناسهـا ومخارجها، ومدارجها، وفروعهـا المستحسنـة، وفروعهـا المستقبحـة، وذكرِ خلاف العلمـاء فيها مُسْتقصـىً مشروحاً، وعالـج العديد من مسائل علـم الأصوات وفيما يلي عددا منها: الألـف اللينة... الحروف الفرعية المستحسنـة، الحروف الفرعيـة المستقبحة، مخارج الحروف، همزة بَيْنَ بَيْـنَ، إبدال الزاي من الصـاد، المضارعة والتقارب بين الحركات، الفتحة المشوبة بالكسرة، الكسرة المشوبة بالضمة، الضمـة المشوبة بالكسرة لا يُنْحَى بالكسرة ولا بالضمة نحـو الفتحة، قلب النون إذا أدغمت بغنّة، والطاء والصاد والضاد إذا أدغمن بإطباق، الحركة الضعيفة المختلسة، أقسام الحروف، المجهور والمهموس، الشديـد والرخو والمتوسـط، المطبق والمنفتـح، المستعلي والمنخفض، الصحيح والمعتلّ، الساكن والمتحرك، الأصلي والزائد، حروف البدل، الحرف المنحرف، الحرف المكرر، الحرف المُشَرب، الحرف المهتوت، حروف الزلاقة، حسن تأليف الكلمة من الحروف[٥].

١- انظر الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع، ص ٣٩٩ وما بعدها.

٢- أبو الفتح عثمان بن جني، له كتب كثيرة، من أعلام اللغويين، توفي سنة ٣٩٢ هجرية . انظر ترجمته في: تاريخ العلماء النحويين، ص ٢٤ .

٣- انظر محاضرات في الصوتيات،ص ٣١.

٤- انظر سر صناعة الإعراب، ١/٣٢٩.

٥- نفس المرجع ١/٣٢٠.

لمــا انتهــى ابن جني من هــذه المقدمــة الطويلة في باب اسمــاء الحروف عقــد لكل حرفٍ بابــا، مبتدئــاً بالهمزة[1] حتى نهاية الأحرف مبيّنا وشارحا مخارجهــا وصفاتها وإبدالها أو قلبها، استحسانهــا وقبحهــا، وتآلفها مــع بقية الأصوات وزيادتهــا ومفارقتها، وجــواز إدغامها وتماثلها، وتقاربها وإتباعها، وهكذا كل حرف بحسب ما فيه من خصائص صوتية.

وجــاء القرن الخامس الهجري يحمــل إلينا رسالة صغيرة في الأصوات العربية، للرئيس ابن سينــا، فيلسوف الإسلام، واسمها: «أسباب حدوث الحروف»، وهي مقسمة على ستة فصول: الأول منها في سبب حدوث الصوت، ويقصد به صوت الإنسان وغيره، والثاني في سبب حدوث الحروف، ويقصد بالحروف الأصوات الإنسانية، والثالث في تشريح الحنجرة واللسان، والرابع في الأسباب الجزئية لحــرفٍ حرفٍ من حروف العرب، والخامس في الحروف الشبيهة بهذه الحروف، وليست في لغة العرب، والسادس في أن هذه الحروف من أي الحركات غير النطقية قد تسمع. وحديث ابن سينا في هذه الرسالة، أشبه بحديث علماء وظائف الأعضاء، فكان له مصطلحاته ووصفه الأصيل لكل صوت، مما جعله محل إعجاب وتقدير علماء الأصوات المحدثين[2].

وفــي القرن السادس الهجري ألّف جار الله الزمخشــري[3] كتاب «المفصَّل» في علم النحو، وفــي نهايــة الكتاب درس العديد من أبحــاث الدراسات الصوتية[4]، وقد شــرح هذا الكتاب موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش المتوفى سنة ٦٤٣ هـ وغيره .

ومــن الأبحــاث الموصوفة بالأصالــة بالدراسات الصوتيــة ما قدمه السكّاكــي[5]. في كتابه «مفتــاح العلوم»[6]، وهــو يدرس الأصوات اللغويــة ومخارجها وصفاتها ورســم أول مصوّر يعتد به لأعضــاء النطق ومخرج كل صوت محدد في هــذا الرسم، ومع مقارنته بالرسم الحديث تجد عمل السكّاكي أصلاً لرسم المحدثين .

المبحث الثالث: علم الأصوات بين الأصالة والحداثة:

جذبــت أصــوات اللغة العربية علماء اللغة، فانتبهوا إلى أهميــة هذا العلم اللغوي الذي يتعلق بإتقــان القراءة والإلقــاء وتلاوة القرآن، فعملوا علــى نشر هذا العلم وتطبيــق مضمونه، إذ خشي

١- نفس المرجع ٣٢١/١.

٢- انظر المدخل إلى علم اللغة، ص ١٧.

٣- هو: جار الله محمود بن عمر الزمخشري، ألف «المفصل» في النحو، و«أساس البلاغة» في المعاجم و«الكشاف» في التفسير، ولد ٤٦٧ هـ وتوفي ٥٣٨هـ .

٤- انظر شرح المفصل ١٢٠/١٠- الى - ١٥٥ .

٥- هو الإمام أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦هـ.

٦- انظر مفتاح العلوم، ص١١.

هــؤلاء أن تنحـرف أصوات العربية وتتأثـر بأصوات لغوية مجـاورة لها، مثـل: الفارسية والرومية والحبشيـة وغيرها، فبذلوا جهودا واضحة في الحفاظ علـى الصوت العربي، وقد ظهر ذلك جليا فـي القـرن الثاني الهجـري، فكان للخليل بـن أحمد اليد الطولـى في هذا المضمـار، فقد اعتنى بدراسـة الأصوات بطريقة جديدة، وكان عارفا بالموسيقى وأوزان الشعر وعلم العروض، وساعده على ذلك سمعه المرهف، وإحساسه الدقيق بالأصوات اللغوية .

ومن المعلوم بالضرورة أن مختبر وآلات الصوتيات في القرن الثاني الهجري لم تكن موجودة، فكان الخليل بن أحمد يجري التجارب على الأصوات بنفسه ويتذوقها بلسانه، ويختبرها بإحساسه الموسيقي المرهف. قال عنه تلميذه (الليث بن المظفر) في مقدمة معجم العين: «فدبّر ونظر إلى الحـروف كلِّها وذاقها فصيّر أَوّلاها بالإبتداء أدخل حرف منهـا في الحلق. وإنما كان ذواقُه إياها أنــه كان يفتح فاه بالألف ثم يُظهر الحرف، نحـو: أبْ، أتْ، أحْ، أعْ، أغْ، فوجد العين أدخل الحروف فـي الحلق فجعلها أوّل الكتاب ثم ما قرب منها الأرفع فالأرفع، حتى أتى على آخرها وهو الميم»[١] واستثنـى الابتـداء بالألف -علما أنها حلقية وقبـل العين - لأن الألف حرف معتـل، فكره أن يبتدأ التأليف به[٢]. وَسَهُل عليه تقسيم مخارج الأصوات اللغوية، وصفات جميع الأصوات اللغوية. وتوجُّهُ الخليـل بنطـق الصوت اللغوي ساكنا، طريقةٌ سليمة لكي لا يلتبـس على الدارس أو الباحث تداخل الأصـوات فيصدر مـن مخرجه نقيا غير مشوبا، وهذه الطريقة الآن تُتَّبَـع في المدارس الإبتدائية والصف الأول لتدريب التلاميذ على نطق الأحرف سليمة .

وقد تلقف سيبويه نظريات أستاذه الخليل وألّف كتابه «الكتاب» وعقد أبوابا في الإدغام كانت عماد دراسات العلامة ابن جنى في كتابه «سر صناعة الإعراب» وقد تبع ابن جني ما ارتآه الخليل في التعرف على أصوات الحروف، فقال في ذوق أصوات الحروف: وسبيلك إذا أردت اعتبار صدى الحـرف، أن تأتي به ساكنا لا متحركاً، لأن الحركة تُقلق الحرف: عن موضعه -موقعه- ومستقرّه، وتجتذبـه إلـى جهة الحـرف التي هي بعضه، ثم تدخـل عليه همزة الوصل مكسـورة من قبله، لأن الساكن لا يمكن الإبتداء به، فتقول: اِكْ، اِقْ، اِجْ، وكذلك سائر الحروف[٣].

والتشريـح العضـوي البشـري في ذلك الوقت لم يكـن معروفاً ومع ذلـك أدرك ابن جنـي أن صدور الصوت يشبه تارة صوت المزمار وأخرى صوت وتر العود، فهو من ناحية التشريح العضوي لا يـدري بوجود وترين عند الإنسـان، ومع ذلك شبه الصوت اللغوي الصـادر من مخرجه بصوت

١- العين ٥٢/١.

٢- انظر نفس المرجع

٣- سرّ صناعة الإعراب ٧/١.

النـاي وآخـر بصوت أوتـار العود، فقال فـي تشبيه الحلق بـآلات الموسيقى: ولأجـل ما ذكرنا من اختلاف الأجراس في حروف المعجم باختلاف مقاطعه، التي هي أسباب تبايُن أصدائه، ما شَبَّه بعضهـم الحلق والفم بالناي، فـإن الصوت يخرج فيه مستطيلا أملس ساذجاً، كما يجري الصوت في الألف غُفلاً بغير صنعة، فإذا وضع الزامر أناملَهُ على خروق الناي المنسوقة وراوح بين أنامله، اختلفت الأصوات، وسمع لكل خَرْق منها صوت لا يُشبه صاحبه، فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم بالإعتماد على جهات مختلفة كان سبب سماعنا هذه الأصوات المختلفة .

ونظيـر ذلك أيضـاً وتر العود، فـإن الضارب إذا ضربه وهـو مُرْسَل، سمعتَ لـه صوتا. فإن حَصَـرَ آخِرَ الوتـر ببعض أصابع يسـراه، أدى صوتا آخر، فإن أدْناها قليـلاً، سمعت غير الاثنين، ثـم كذلك كلما أدنـى أُصْبُعه من أول الوتر تشكّلت لك أصداء مختلفـة، إلا أن الصوت الذي يؤديه الوتـر غُفـلا – أي: مرسلا– غيـر محصور، تجده بالإضافـة إلى ما أداه وهـو مضغوط محصور، أملـس مهتزاً[١]. ويبين أن سبب اختلاف الأصوات هو الضغط على الأوتار وحصرها، فيهتز الوتر بقدر قوّته وصلابته ويذكر أن جريان الصوت في الحلق والفم غفلاً بمعنى مرسلا أو مفتوحا غير محصور كجريان الصوت في الألف، ويعنى صوت اللين المفتوح، وما يعترض الصوت من الضغط والحصـر بالأصابع على الوتر كالذي يعرض للصوت في مخارج الحروف من المقاطع ويقوم بهذا الدور اللسان، وبيّن ابن جني أن علم الأصوات والحروف، له تعلق ومشاركة للموسيقى، لما فيه من صنعة الأصوات والنغم[٢].

وبذلـك يكون ابن جني قد أدرك أن الصوت يصاحبه اهتزاز أو ذبذبات عند صدوره فيظهر ذلك الصدى ويتشكل بالضغط على مناطق مختلفة في تجويف الحلق أو الفم .

وقـد أطـال ابن جني الحديث عن طول الصوت اللغوي والزمـن الذي يستغرقه نطق الحركة والمـدّ وصوت اللين، فيختلف زمن كل واحد عن الآخر، وأن هذه الأصوات متشابهة النطق مختلفة فـي كمية الزمن، وفـي شرحه أن «الحركات أبعاض حروف المد» قـال: اعلم أن الحركات أبعاض حروف المدّ واللين، وهي الألف والياء والواو، فكما أن هذه الحروف ثلاثة، فكذلك الحركات ثلاثة، وهـي الفتحة، والكسرة، والضمة، فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو، وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة، والكسرة الياء الصغيرة، والضمة الواو الصغيـرة، وقـد كانوا في ذلك علـى طريق مستقيمة، ألا تـرى أن الألف والياء والـواو اللواتي هُنَّ حروف تَوَامٌّ كوامِلٌ، قد تجدهُنَّ في بعض الأحوال أطول وأتمَّ منهن في بعض، وذلك قولك: يخاف

١– المرجع السابق ١/٩-١٠.

٢– المرجع السابق ١/١٠ .

وينـــام، ويسير ويطير، ويقوم ويسوم، فتجد فيهن امتداد واستطالة ما، فإذا أوقعت بعدَهُنَّ الهمزة أو الحــرف المدغـم ازددن طولا وامتـداداً، وذلك نحو: يشاء ويـداء – داء الرجل يداء، على مثال شـاء: يشـاء: إذا صار في جوفه الـداء– ويسوء ويهوء– هاء بنفسه إلى المعالـي يهوء هوءاً: رفعها وسما بها – ويجيء ويفيء وتقول مع الادغام شابَّةٌ ودابَّة، ويطيب بَّكر، ويسير رَّاشد، وتُمودَّ الثوب، وقـد قُوصَّ زيد بما عليه، أفلا ترى إلى زيادة المـدّ فيهنَّ بوقوع الهمزة والمدغم بعدَهُنَّ، وهن في كلا موضِعَيْهِـنَّ يُسمَّيْنَ حروفاً كوامل، فإذا جاز ذلك فليست تسمية الحركات حروفا صغاراً بأبعدَ مـن القياس منه، ويدلك على أن الحركات أبعاضٌ لهذه الحـروف، أنك متى أشبعت واحدةً منهن حَـدَثَ بعدها الحرف الذي هي بعضه، وذلك نحو فتحة عين عَمَرَ، فإنك إن أشبعتها حدَثت بعدها ألـف فقلت :عامـر، وكذلك كسرة عين عِنَـب، إن أشبعتها نشأت بعدها يـاء ساكنة، وذلك قولك: عينَـب، وكذلك ضمة عين: عُمَـر، لو أشبعتَها لأنشأت بعدها واواً ساكنة، وذلك قولك: عومَر، فلولا أنّ الحركاتِ أبعاض لهذه الحروف وأوائل لها، لما تنشَّأت عنها، ولا كانت تابعة لها[١].

ولهذا كتب علماء اللغة الحركات فوق الحروف والمدود بجانبها لكي لا يلتبس الأمر بينهما ولا تطول كتابه الكلمة، وهذه عبقرية الخليل بن أحمد. بينما نجد الكتابة باللغة الفرنسية أو الانكليزية أن أصـوات الحـركات أو اللين «VOWELS» كتبت في صلب الكلمـة الأجنبية فتفوقت ميزة الكتابة العربية على الأجنبية بذلك كثيرا، وليس هنا موطن الحديث عنها.

والحديث عن الحركات أو أصوات اللين يستدعي أن نتبين الحركات المعياريّة، وكان الأستاذ دانيـال جونـز[٢] الذي يرجع إليه الفضل الأول في إنجاح هذا وجعلـه صفة العالمية في الدراسات الصوتية، وهذه الحـركات لا تنسب إلى أيّ لغة، وإنما هي «معايير» أو «مقاييس» عامة، تنسب إليها وتقاس عليها حركات أيّ لغة يـراد دراستها أو تعلمها[٣]. وسجلت علـى الأسطوانات، وأشهر هذه الأسطوانات رقم B 0804 في أكسفورد ولندن[٤].

وقـد بـدأ دانيال جونز عمله بـأن حدد الموضع الـذي يمكن أن يصعد إليـه أول اللسان نحو الحنـك الأعلـى، بحيث يكون الفراغ بينهما كافيـا لمرور الهواء، دون أن يحـدث في مروره أي نوع مـن الحفيف. فأقصى ما يصل إليه أول اللسان متجهـا نحو الحنك الأعلى بحيث لا يحدث الهواء المار بينهما أي نوع من الحفيف يعدّ موضعا مضبوطاً بين أصوات اللين، وقد رمزله بالرمز«I» وهو

١– سرّصناعة الاعراب ١/١٩–٢٠.

٢– استاذ الصوتيات في جامعة لندن.

٣– انظر علم اللغة العام «الاصوات» ص، ١٣٩.

٤– الأصوات اللغوية، ص ٣٥.

مـا يشبـه الكسرة الرقيقة في اللغة العربيـة حين يكون قصيراً، أو ما يسمـى بياء المد حين يكون طويـلا، وقد عدّ المحدثون هذا الصوت أول مقياس لأصوات اللين، لتحدد موضعه إذ لو صعد أول اللسـان نحو الحنك أكثر من هـذا، سمع الحفيف الذي يخرج به صـوت اللين إلى محيط الصوت الساكن الذي نسميه «الياء» فالفرق بين «الياء» وصوت اللين «İ» الطويل، هو أن موضع الأول أقرب إلـى الحنـك الأعلى، والفراغ بين اللسان والحنك معها أضيـق منه في حال صوت اللين «İ» ويترتب على هذا أننا نسمع بعض الحفيف مع «الياء».

وذلـك لأن ضيـق المجرى عـن القدر المعيـن المحدد لأصـوات اللين يخـرج بالصوت عن منطقتهـا إلى منطقة الأصوات الساكنة، فما سمـاه القدماء بياء المد في مثل: «كريم وقتيل» يشبه إلى حد كبير المقياس الأول الذي يرمز في علم الأصوات بالرمز «i» حين يكون هذا المقياس طويلا أي حيـن يطول زمن النطق به، أما حين يقصر زمن النطق به فهو قريب الشبه بالكسرة المرققة. فـإذا أردنـا الإنتقال من ياء المد التي هي في مثل «كريم» والتي تقـع في منطقة أصوات اللين إلى الياء العادية التي تكون في مثل: «بَيْت» أمكن هذا بتضييق الفراغ بين اللسان والحنك الأعلى.

ويتكون المقياس الثاني بأن يهبط اللسان إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه في الفم، بحيث يستـوي في قـاع الفم، مع انحراف قليل في أقصـى اللسان نحو أقصى الحنـك، فيتحدّد لنا بهذا مقياس آخر، ويرمز إليه عادة بالرمز «ɑ» وهو ما يشبه الفتحة المفخمة في اللغة العربية حين يكون قصيرا، ويشبه ما يسمى بألف المدّ المفخمة حين يكون طويلاً. وبين أقصى ما يصل إليه اللسان فـي صعوده نحو الحنـك الأعلى وأقصى ما يصـل إليه في هبوطه بقاع الفـم، استنبط المحدثون ثلاثـة مراحل عند كل منها يتكون صوت ليـن خاص. فاللسان في هبوطه من وضع «i» إلى وضع «ɑ» يمرّ بمواضع ثلاثة، رمز لها بالتدريج - إقرأ بالطريقة العربية من اليمين - «a€e».

وقـد اتخـذ علماء الأصوات المحدثون ثلاث مراحل أخرى تلـي الصوت «ɑ» ناظرين في هذه المرّة الى نسبة صعود اللسان نحو الحنك الأعلى. فآخرها ما يصل إليه أقصى اللسان في صعوده نحـو أقصى الحنك، ليكُون الفـراغ بينهما من السعة بحيث لا يحدث الهـواء أي نوع من الحفيف، هـو المقياس الأخير لأصوات اللين، وهو ما يرمـز إليه بالرمز «u» وهو الذي يشبه الضمة المرققة فـي اللغـة العربية حين يكون قصيراً، ويشبه ما يسمى بواو المدّ حين يكون طويلاً. فإذا زاد صعود أقصـى اللسـان نحو أقصى الحنـك، أحدث الهواء في أثناء مروره نوعا مـن الحفيف، وأنتج ذلك الصـوت الذي نسميه بالواو، فالفرق بين الواو وصـوت اللين «u» الطويل وهو أن الفراغ بين أقصى اللسان وأقصى الحنك مع الأولى ضيق، إذا مرّ خلاله الهواء أحدث نوعا من الحفيف، فإذا قورنت الـواو العاديـة التي في مثل «يَوْم» بما يسمى بواو المدّ في مثل «يقـوْل» وجدنا مع نطق الواو العادية

نوعـا من الحفيف يجعلهـا تنتمي إلى الأصوات الساكنة. ويعزى هذا الحفيف إلى ضيق الفراغ بين أقصى اللسان والحنك عن القدر المحدد لأصوات اللين ويرمز عادة للمرحلتين اللتين بين «a» و«u» بالرمزين الآتيين على الترتيب، o .

وبهـذا يتكون لنا ثمانية مقاييس تبـدأ بصوت اللين «i» وتنتهي بصوت اللين «u»[1] وتوضع عادة مدرجة في شكل كالآتي:

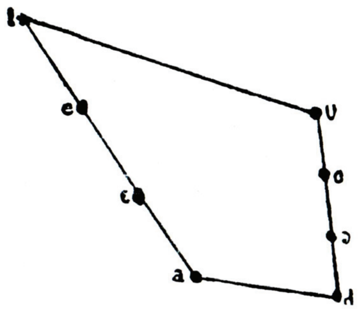

هـذا التوصيف للحـركات المعيارية ذكرته أغلب كتب الأصـوات الحديثة[2] وقد ذكر «كمال بشـر» صوتا تاسعا أهملـه «ابراهيم أنيس» وغيره، فقال:«أما الحركـة المعيارية التاسعة :[ə] فلا يرتفع اللسان معها من الخلف أو الأمام إرتفاعاً ملحوظا، كما لا ينخفض معها انخفاضا كبيرا في قاع الفم، أي: أن هذه الحركة لا تنسب إلى الجزء الأمامي أو الخلفي من اللسان، وإنما تنسب إلى وسطه لأنه الجزء المرتفع نسبيا حال النطق بها»[3] ويضع رسماً بيانيا يبين موقع هذا الصوت وهو على الشكل التالي:

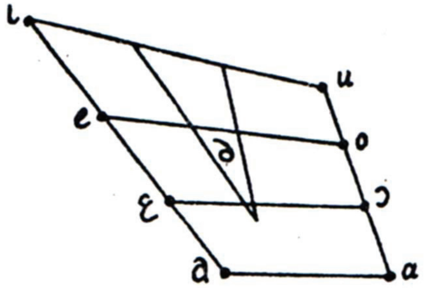

١- انظر الأصوات اللغوية،ص ٣١.

٢- انظر مدخل علم اللغة، ص٩٤. علم اللغة العام «الأصوات» ص،١٤١. اللغة العربية -خصائصهاوسماتها، ص١٩٠، التجويد والأصوات ص٣٣.

٣- علم اللغة العام،ص١٤١.

وقد وضع لكل حركة معيارية مثالاً من لغات متنوعّة:[١]

الحركة الأولى	I	ومثالها الكلمة الفرنسية si
الحركة الثانية	e	ومثالها الكلمة الفرنسية thé
الحركة الثالثة	ε	ومثالها الكلمة الفرنسية même
الحركة الرابعة	α	ومثالها الكلمة الفرنسية la
الحركة الخامسة	α	ومثالها الكلمة الفرنسيةpαs
الحركة السادسة	ɔ	ومثالها الكلمة الألمانية sonne
الحركة السابعة	o	ومثالها الكلمة الفرنسية rose
الحركة الثامنة	u	ومثالها الكلمة الألمانية gut

بعد عرض الحركات المعيارية يتبين لنا أنها ليست غريبة عن حركات اللغة العربية فالحركة رقم «١» تشبه الكسرة العربية المرققة «قصيرة أو طويلة». وإذا كانت الكسرة تصاحب صوت «الصاد، الضاد، الطاء، الظاء» فإن المتكلم يفخم صوت الكسرة لوجود صوت مطبق فيخرج صوت الكسرة مفخما قليلا ويناسب الصوت المعياري الثاني. أما الحركة الثالثة فتماثلها الفتحة الممالة في نحو «مرساها–ومجراها– والضحى «في قراءة حمزة والكسائي. والحركة الرابعة «a» وتشبهها الفتحة العربية المرققة «طويلة» – أو– «قصير» ومثالها: عالم، هام، علم، هرب. ففتحة العين والهاء مرققة. والصوت الخامس «α» الفرنسي، فإنها الفتحة المفخمة إذا كانت طويلة وقبلها صوت مطبق، مثل: صال،طاب،أو قصيرة وصاحب صوتا مطبقا، مثل: طَبَق، صَبَرَ، ظَلَمَ. والحركة السادسة«ɔ» الألماني وهو أول حركات الضم، ويمثلها في اللغة العربية صوت الضمة مثل: السميعُ، البصيرُ. والحركة السابعة «o» الفرنسية، الضمة المفخمة المصاحبة لصوت مطبق، مثل:صُم. أما الحركة الثامنة «u» الألمانية، فتمثلها حركة الضمة الطويلة، مثل قولك: مقتول، مجهول.

أما الذي ذكرهُ «كمال بشر» في الحركة التاسعة [ə] ومخرجها المنطقة الوسطى ما بين الضم والكسر والذي عبر عنها علماء النحو والتجويد بالإتمام في مثل قولك: قُيل، وبُيع، عند إحالة الكسر إلى الضم[٢].

وقد ذكر ابن جني أن المضارعة والتقارب يكون بين الحركات، فقد تجد الفتحة مشوبة بشيء من الكسرة أو الضمة منحواً بها إليهما، وتجد الكسرة أيضاً مشوبة بشيء من الضمة،

١– أنظر المرجع السابق ص،١٤٢.

٢– قارن مع علم اللغة العام«الأصوات» ص،١٤٠. الأصوات اللغوية ٤٠. التجويد والأصوات. ص٣٦.

والضمة مشوبة بطرف من الكسرة، ولا تجد الكسرة والضمة مشوبة بشيء من الفتحة .

أمـا الفتحـة المشوبة بالكسرة فالفتحة التـي قبل الإمالة نحو فتحـة عين عابد وعارف، وذلك أن الإمالة إنما هي أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة، فتميل الألف التي بعدها نحو الياء، لضرب مـن تجانس الصـوت، فكما أن الحركة ليست فتحة محضة، فكذلك الألـف التي بعدها ليست ألفاً محضـة، وهذا هو القياس، لأن الألف تابعة للفتحة، فكما أن الفتحة مشوبة فكذلك الألف اللاحقة لها، وقد أمالوا أيضاً هذه الفتحة وإن لم تكن بعد الألف، فقالوا: من عَمْرِو،... وأما الفتحة الممالة نحـو الضمة، فالتي تكون قبل ألف التفخيم، وذلك نحو: الصـلاُة، والزكُاة، وقُام، وصُاغ. وكما أن الحركـة أيضـاً هنا قبل الألف ليست فتحة محضة، بل هي مشوبة بشيء من الضمة، فكذلك الألف التـي بعدها، ليست ألفا محضة لأنها تابعه لحركة هذه صفتها، فجرى عليها حكمها، وأما الكسرة المشوبة بالضمة، فنحو: قُيِل، وبُيِع، وغُيِض، وسُيِق، وكما أن الحركة قبل هذه الياء مشوبة بالضمة، فالياء بعدها مشوبه بروائح الواو،على ما تقدم في الألف.

أمـا الضمة المشوبة بالكسرة فنحو قولك في الإمالة : مـررت بمذعُِور وهذا ابن بُِور، نحوت بضمة العين والباء نحو الكسرة... فأشممتها شيئاً من الكسرة ...

وأجـاب ابـن جني عن سؤال: لم جـاز في الفتحة أن ينحـى بها نحو الكسـرة والضمة، وفي الكسرة ينحى بها نحو الضمة، وفي الضمة أن ينحى بها نحو الكسرة ولم يجز في واحد من الكسرة ولا الضمة أن ينحى بها نحو الفتحة ؟

وملخـص إجابتـه: أن بيـن الضمـة والكسـرة مـن القـرب والتناسـب مـا ليـس بينهمـا وبيـن الفتحـة، فجـاز أن يتكلـف نحو ذلـك بين الضمـة والكسـرة لما بينهمـا مـن التجانس[١]. فقد لاحظ ابن جني تجانس الضم مع الكسر وسببه أنهما يتفقان بارتفاع اللسان«فهما مستعليتان« بحيـث لا يطرق اللسان سقف الحنك وإن كان احدهما من أقصى اللسان والآخر من طرفه، بينما الفتحـة مستفلة. و«أن هذا القول على مـا تراه، وإن شئت فقل إن الضمة وإن نُحِيَ بها نحو الكسرة فلقربها منها وبعدت الفتحة منها فلم يجز فيها ما جاز في الكسرة القريبة»[٢].

فالباحث يدرك سعة معرفة علماء العَربيَّة القدامى بالأصوات اللغوية، في الوقت الذي كانوا يفتقـدون إلى مساعـدة الآلات وإجراء التجارب عليهـا كما هو الحال في القـرن التاسع عشر وما بعده، وما أدل على ذلك سوى الرسم الذي ابتكره السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ هجرية، أي أكثر من ثمانمائة عام. فقد نبّه في حديثه على أنواع الأصوات الصامتة، ثم تحدث عن الأصوات المجهورة

١- انظر سرّ صناعة الإعراب ٥٨/١ وما بعدها

٢- سرّصناعة الإعراب ٦٢/١.

فالمهموسـة، وحروف القلقلة، وتنوع الأصوات إلى مستعلية ومنخفضة، والمطبقة والمنفتحة، وأن مخارجهـا عند العلماء ستة عشر مخرجا، ويذكر مخارج الأصـوات مبتدئاً بأقصى الحلق، مروراً بمخارج أصوات اللسان والإنتهاء بمخرج الباء والميم من الشفتين، ذاكرا الخياشيم، وصحيح أن هذا الرسم بدائي ولكن كل شيء يبتدئ ضعيفاً حتى يستقيم الأمر، ولكن السكاكي كان على طريق سويّ بالنسبة إلى ما قدمه كأول تخيّل مرسوم ووسيلة إيضاح، وإليك الرسم الموجود في كتابه:[1].

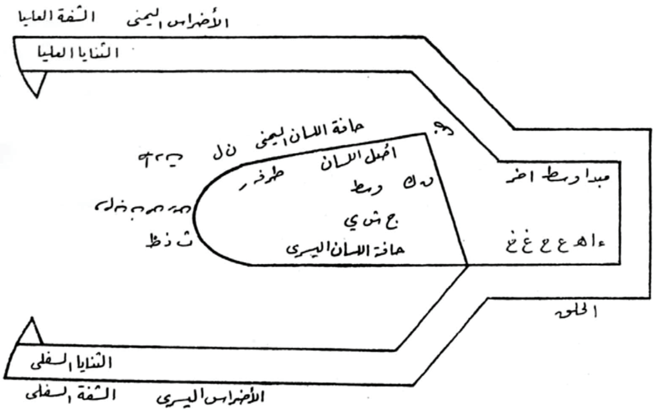

وعلمـاء العربية كما وصفوا أصوات اللين أيضاً وصّفوا الأصوات الصامتة كلها. وما يقابلها ويناسبهـا مـن أصـوات باللغات الأوروبيـة تناسب مع توصيف علمـاء أصوات الغـرب المحدثين، وتعريـف المصطلحـات العربية القديمـة والأوروبية الحديثـة جاءا منسجمين فـي الدلالة، وهذه طائفة من المصطلحات الصوتية في اللغة العربية وما يتناسب معها في لغات أخرى:

الأصـوات الصامتـة: consonants. الحـركات: vowels. الصـوت المهموس : voiceless. الصوت المجهور : voiced. إلتقاء الثنايا وطرف اللسان :dental. الأصوات الشديدة أو الإنفجارية: plosives. الأصوات المحبوسـة :stops. صوت الطاء مشربة بالتهميز : glottalzation. الحركات المعياريـة:cardinal vowels. الحـركات الأماميـة: front vowels. الحـركات الخلفيـة: bock vowels. الحـركات الوسطـى: central vowels. الحـركات الضيقـة : close vowels . الحركات المتسعـة أو المنفتحـة :open vowels. الحركات نصف الضيقـة :half-close vowels. الحركات نصـف المتسعـة :half-open vowels.[2] الصـوت الرخـو أو الإحتكاكـي :fricatives. الأصـوات

١- انظر مفتاح العلوم، ص ١٣.

٢- انظر علم اللغة العام «الأصوات» ٧٣-٨٧-٩٢-١٠٠-١٠٣-١٣٩-١٤٤ .

المائعة : liquids. الإدغام أو الصوت الأنفي :nazalisation. لسان المزمار : epiglottis. النبر :stress. موسيقى الكلام :intonation. المماثلة :assimilaition. التأثر الرجعي :regressive. التأثر التقدمي: progressive[1].

هذه مجموعة من المصطلحات المستعملة في علم الأصوات اللغوية في اللغة العربية والفرنسية، وكان ابن سينا في أبحاثه اللغوية وتشريحه لأعضاء النطق قد سمّى العديد من الغضاريف والغدد بأسماء عربية أشتهرت بعد ذلك في علم الطب بأسماء أخرى.[2]

ومؤرخو الحضارة الإنسانية والثقافية يقولون: التفكير الصوتي اللغوي لم يأخذ صورته المنظمة ولم يبد في هيئة النظريات العلمية الثابتة إلا في تراث أمتين عظيمتين هما الهنود والعرب ويقول: «برجستراسر» عن علم الصوتيات: لم يسبق الأوروبيين في هذا العلم إلا قومان: العرب والهنود، ويقول«فيرث»: لقد شبّ علم الأصوات ونما في أحضان لغتين مقدستين: العربية والسنسكريتيّة[3].

وقد اتجه علماء الغرب إلى دراسة العلوم العربية عامة وبرزت في القرن التاسع عشر ظاهرة الإستشراق، فاطلع المستشرقون على العلوم العربية كلها وبرعوا فيها، ومنها علم الأصوات، ومن المعروف أن نابليون بونابرت لما غزا الشرق -أول القرن التاسع عشر- اصطحب معه العديد من رجال البحث العلمي لدراسة العلوم المتخصصة، ومن أوائل المستشرقين الفرنسيين الذين درسوا علم الأصوات عند العرب سلفستري ساسي sylvestre de sacy، وتلميذه فرانز بوب المولود في ألمانيا سنة ١٧٩١م، وقد تلقى بوب علومه في ألمانيا وفرنسا وأقام في باريس من سنة ١٨١٢ حتى سنة ١٨١٦ حيث استمع إلى دروس سلفستري، وتعلم العربية والعبرية والفارسية[4].

وكان من المستشرقين الذين أولعوا بالعلوم العربية، المستشرق الألماني«شادِه» حيث كان معجبا بالخليل وسيبويه فدرس علم الأصوات في «الكتاب» وكشف عن كثير من القضايا التي تتصل بالدراسات الصوتية في رسالته التي حصل بها على درجة الدكتوراه، وكان موضوعها:«علم الأصوات عند سيبويه» وقد طبعت هذه الرسالة في ليدن سنة ١٩١١م[5].

وقد صرح الدكتور إبراهيم أنيس: أنه وقع له أخيراً محاضرة ألقاها الأستاذ الألماني:

١- أنظر الأصوات اللغوية ٢٤-٧١-١٤٣-١٧٥-١٨٠.

٢- انظر الأصوات اللغوية، ص ١٤٤.

٣- انظر محاضرات في الصوتيات، ص ٢٧.

٤- انظر الألسنية (علم اللغة الحديث) مبادؤها وأعلامها،ص ٢٧٣.

٥- انظر محاضرات في علم الصوتيات، ص:٣٠ .

أ.شـادِه. الذي كان يقوم بالتدريس في كلية الآداب -بمصر- وفيها يعرض آراء سيبويه ويناقشها، وقـد شـرح الدكتور أنيس هذه المحاضـرة ونقدها[١]. وقد ذكر الدكتور رمضـان عبد التواب هذه المحاضـرة القيمـة في خضـم حديثه عن المؤلفـات الحديثة في علـم الأصوات باللغـة العربية، فقال:٢-«علم الأصوات عند سيبويه وعندنا» محاضرة للمستشرق الألماني«شادِه» ألقاها في قاعة الجمعيـة الجغرافية الملكية في سنة ١٩٣١م باللغـة العربية، ونشرت بصحيفة الجامعة المصرية سنة ١٩٣١م، وهذه المحاضرة خلاصة مؤلف باللغة الألمانية لهذا المستشرق[٢].

ويؤكـد الدكتـور بسام بركة[٣] أن دراسـة الصوت اللغوي بالطـرق العلمية الدقيقة لم تر النـور فـي أوروبا إلا في القرن التاسع عشر، على يد دارسي علم اللغة المقارن، إلا أن وضع الأسس النظرية التي أدت إلى تطور هذه الدراسة جرى على يد رهط من العلماء في مطلع القرن العشرين، كان منهم رائد اللسانيات «دي سوسور»[٤] ومؤسسو مدرسة «براغ» - «lecole de Prague»[٥].

وقـد ذكـر الدكتور ميشال زكريا فـي كتابه الفصـل السابع أعلام الألسنيـة المحدثين، وننصح من يريد أن يستزيد الرجوع إليه[٦].

وقد بيّن «ج. ڤندرس» أن علم الأصوات قد طرأ عليه تجديدات عميقة، فقد أنشأت جماعة من اللغويين ينتمون إلى هيئة براج «براغ» منهجا جديدا هو«الصوتيات» مستوحين في ذلك الآراء التي ذكرها من قبل «بودوان دي كورتنيه» و«فرديناند دي سوسّور»[٧].

١- انظر الأصوات اللغوية، ص «١١١».

٢- المدخل الى علم اللغة، ص«١٩» ومما يذكر هنا أن الدكتور رمضان عبد التواب درس في جامعات ألمانيا، وناقشني في رسالة الدكتوراه سنة ١٩٧٩م في كلية اللغة العربية- جامعة الأزهر .

٣- انظر علم الأصوات العام . د. بركة، ص «٥».

٤- فردينا ند دي سوسّور f de Saussure. ولد في جنيف ١٨٥٧م وتوفي سنة ١٩١٣م. يعدّ «دي سوسور» مؤسس العلوم اللغوية الحديثة ورائد مفاهيم اللسانيات البنيوية. انظر علم الأصوات العام د. بركة ص «١٠». والألسنية، ص «٢٣».

٥- مدرسة لغوية امتدّ نشاطها من سنة ١٩٢٦م حتى الحرب العالمية الثانية

٦- أنظر الألسنية، الفصل السابع،ص،«٢١٧».

٧- انظر كتاب «اللغة» ص «٤٦١».

التوصيات

أولاً: الوثـوق باللغة العربية، فهي لغـة أدت دورا في الحياة الأدبية واحتوت النصوص الشرعية ومفهومها، وطاوعت المجتمع في فهم الحضارات، وعبَّرت عن حاجات المجتمع، فهي لغة شريفة ومتينة والعرب والمسلمون عامة يعرفون فضلها ومكانها ولا يستبدلونها بلغة أخرى

أو بلهجة تحلُّ مكانها.

ثانيا: ندعو علماء اللغة إلى الاطّلاع على الثروة اللغوية العربية واستظهار مكنونها وفهم أسرارها.

ثالثا: شرح آراء علماء اللغة القدامى لفهم مكنونات لغتنا الفصيحة.

رابعا: اهتمام الأمة بتعليم أبنائها. منذ الصغر. لغتهم العربية وتمكينهم منها في كافة المراحل الدراسية.

خامساً: وضع المناهج والمقررات بصورة محبوبة ومبسطة وحديثة ليقبل عليها أبناؤنا في كافة المراحل الدراسية .

المراجع

١- الأدب العربـي بيـن الجاهلية والاسـلام. تأليف عبـد الحميد محمـود. المسلوت مطبعـة السعادة- بمصر- ١٣٨٧-١٩٦٧م.

٢- الأصوات اللغوية. تأليف الدكتور إبراهيم أنيس. الطبعة السادسة-١٩٨١ م- مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة.

٣- إعجـاز القرآن والبلاغـة النبوية. تأليف مصطفى صادق الرافعي. الناشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان- الطبعة التاسعة١٣٩٣هـ -١٩٧٣م.

٤- الألسنية (علم اللغة الحديث) ومبادؤها وأعلامها. تأليف الدكتور ميشال زكريا بيروت ١٩٨٠

٥- تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم. للقاضي أبي المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر التنوخي المعري. تحقيق د. عبد الفتاح محمد الحلو ١٤٠١هـ ١٩٨١م. جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية السعودية.

٦- التجويد والأصوات . تأليف الدكتور إبراهيم محمد نجا - مطبعة السعادة - القاهرة .

٧- التطّـور اللغـوي التاريخي. تأليف الدكتور إبراهيم السامرائـي. دار الأندلس. بيروت. لبنان -الطبعة الثالثة — ١٩٨٣م.

٨- تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري المتوفى سنة ٣٧٠هـ. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر - سلسلة «تراثنا« .

٩- جمهـرة اللغة. لأبـي بكر محمد بن الحسـن الأزدي البصري، المعروف بابن دريـد. مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع - القاهرة .

١٠- سرّ صناعة الإعراب. صنعه الشيخ أبي الفتح عثمان بن جني النحوي. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى ١٣٧٤هـ. ١٩٥٤م.

١١- شرح رياض الصالحين. من كلام سيد المرسلين . لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي الدمشقي. شرح الشيخ محمد علي الصابوني. المكتبة العصرية صيدا- بيروت. لبنان.

١٢- شـرح المفصل. للعلامة موفق الدين يعيش بن على بـن يعيش. المتوفى سنة ٦٤٣هـ . عالم الكتب -

بيروت – مكتبة المتنبي – القاهرة .

١٣- صحيح مسلم . للامام أبي الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري . دار ابن رجب. الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م.

١٤- طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف بمصر، ١٩٩٣ م. سلسلة ذخائر العرب(٥٠).

١٥- علم الأصوات العام «أصوات اللغة العربية». تأليف د.بسام بركة. مركز الإنماء القومي . لبنان - بيروت ١٩٨٨م.

١٦- علم العروض والقافية . تأليف : الدكتور عبد العزيز عتيق. مكتبة منيمنة . شارع المعرض- بيروت- لبنان -١٩٦٤م.

١٧- علم اللغة العام «الأصوات» .دكتور كمال محمد بشر، دار المعارف بمصر - ١٩٧٣.

١٨- العين- للخليل بن أحمد الفراهيدي -١٠٠-١٧٥هـ . تحقيق د. عبد الله درويش . مطبعة العاني - بغداد ١٣٨٦ -١٩٦٧ م.ساعد المجمع العلمي العراقي على طبعه.

١٩- فصول في فقه اللغة . تأليف د. رمضان عبد التواب . الطبعة الأولى . القاهرة ١٩٧٣. مكتبة دار التراث.

٢٠- الكتاب، تأليف أبي بشر عمرو الملقب بسيبويه -مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت- لبنان .

٢١- كتاب الأغاني، تأليف: أبي الفرج الأصبهاني، علي بن الحسين - ٣٥٦ هـ-٩٧٦م. مطبعة: وزارة الثقافة والارشاد القومي-المؤسسة المصرية للعامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

٢٢- الكامل في اللغة والأدب والنحو .تأليف أبي العباس المبرد، تحقيق د.زكي مبارك. الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ-١٩٣٧م. مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

٢٣- اللغة تأليف :ج. ڤندريس . تعريب: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص. الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٠م.

٢٤- اللغة العربية - خصائصها وسماتها. «دراسات في فقه اللغة» د.عبد الغفار هلال - الطبعة الأولى - ١٩٧٦م. مطبعة الحضارة العربية - الفجاله بمصر.

٢٥- اللهجات العربية. تأليف الدكتور إبراهيم محمد نجا. مطبعة السعادة. الطبعة الأولى.

٢٦- محاضرات في علم الصوتيات . بقلم د. عبد الله ربيع ود.عبد العزيز علام ١٩٧٥-١٩٧٦م.

٢٧- موسيقى الشعر .تأليف الدكتور إبراهيم أنيس . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٢ م الطبعة الرابعة .

٢٨- المدخل الى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي: تأليف د. رمضان عبد التواب . الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.١٩٨٥م. الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة .

٢٩- مفتاح العلوم. لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦هـ. دار الكتب العلمية - بيروت- لبنان .

٣٠- نشأة النحو، وتاريخ أشهر النحاة . تأليف محمد الطنطاوي . تعليق عبد العظيم الشناوي ومحمد عبد الرحمن الكردي. مطبعة السعادة - مصر- الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م.

٣١- الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع، تأليف عبد الفتاح عبد الغني القاضي، المتوفى سنة ١٤٠٣هـ مكتبة الوادي للتوزيع، الطبعة الخامسة ١٩٩٩م.